ويقول الحق بعد ذلك:

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾

وكلمة ﴿عَفَا﴾ تدل على أن هناك أثراً قد مُحى ؛ تماماً كما يمشى إنسان فى الرمال ؛ فتُحْدث أقدامه أثراً ، ثم تأتى الريح فتملأ مناطق هذا الأثر بالرمال وتزيله . وهى تُطلق فى الدين على محو الله سبحانه وتعالى لذنوب عباده فلا يعاقبهم عليها . وما دام الإنسان قد استغفر من ذنبه وقال: أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه [1] ، فلا يجب أن يحرجه أحد بعد ذلك ، ولا أن يعايره أحد ، فقد استغفر عند من يملك الملك كله ، وهو وحده سبحانه الذى يملك العفو والمغفرة [2] ، فلا يُدْخلنَّ أحدكم نفسه فى هذه المسألة ، ولا يجب أن يحرج إنسان مذنباً مادام قد استغفر مَنْ يملك العفو ، ومن يسمع مستغفراً عليه أن يقول: عفا الله عنك . ولا أحد يعرف إن كان الله قد عفا عنه أم لا ، فَلْتُعنْهُ بالدعاء له ، ومن يعاير مذنباً نقول له : تأدب ؛ لأنه لم يرتكب الذنب عندك ، ولكنه ارتكبه عند ربه ، وإذا كان من يستغفر من ذنبه لا يُحرج به بين الناس ، فما بالنا بعفو الله سبحانه القادر وحده على العفو .

(١) أخرجه أبو داود (١٥١٧) والترمذى (٣٥٧٧) فى سننيهما من حديث زيد مولى النبى ﷺ . قال الترمذى: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. قال المنذرى فى الترغيب (٢/٢٦٩): « إسناده جيد متصل » وأخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/١١٨) عن ابن مسعود وصححه على شرط مسلم، وأقره الذهبى .

(٢) فهذا شأن الرب العفو الغفور القائل سبحانه ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥] ، أما شأن الناس فقد قال الله عنهم ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠] ، فهم بالإضافة لتصيدهم لأخطاء الناس، لو كانت الرحمة بأيديهم وكلفوا إعطاء الناس منها لبخلوا بها.

وهنا يقدم الحق سبحانه العفو عن رسول الله ﷺ الذى أذن لهم بالقعود عن القتال ، ثم يأتى القرآن من بعد ذلك ليؤكد أن ما فعله رسول الله بالإذن لهم بالقعود كان صواباً ، فيقول فى موضع آخر من نفس السورة :

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ﴾ [التوبة : ٤٧]

إذن : فلو أنهم خرجوا لكانوا سبباً فى الهزيمة ، لا من أسباب النصر . وصوَّبَ الحق عمل الرسول ، وهو ﷺ له العصمة .

وهنا نحن أمام عفو من الله ، على الرغم من عدم وجود ذنب يُعفى عنه ، وهنا أيضاً إذن من الرسول لهم بالقعود ، ونزل القرآن ليؤكد صوابه .

وهناك من فهم قول الحق : ﴿ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ على أنها استفهام استنكارى ، وكأن الحق يقول : كيف أذنْتَ لهم بالعفو ؟

إذن : فرسول الله بين أمرين : بين عفو لا يُذْكَرُ بعده ذنب ، واستفهام يفيد عند البعض الإنكار .

ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى أيَّد رسوله ﷺ بقوله :

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ﴾ [التوبة : ٤٧]

فكأن الرسول قد هُدىَ إلى الأمر بفطرته الإيمانية ، وقد أشار القرآن إلى ذلك ؛ ليوضح لنا أن رسول الله ﷺ معصوم وفطرته سليمة ، وكان عليه أن يقدم البيان العقلى للناس ؛ لأنه الأسوة حتى لا يأتى من بعده واحد من عامة الناس ليفتى فى مسألة دينية ويقول : أنا رأيت بفطرتى كذا، بل لابد أن يتبين الإنسان ما جاء فى القرآن والسنة قبل أن يفتى فى أمر من أمور الدين .

وعلى سبيل المثال: اختلف الأمر بين المسلمين فى مسألة الفداء لأسرى بدر[1] ونزل القول الحق:

﴿ لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٨]

وأيَّد الله حكم رسوله وأبقاه. إذن فرسول الله ﷺ هُدِى إلى الأمر بفطرته الإيمانية، ولكن هذا الحق لا يباح لغير معصوم.

وقد أباح الحق سبحانه الاستئذان فى قوله:

﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ [النور: ٦٢]

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ وهكذا يتبين لنا أن الرسول ﷺ قد أذن لهم بالمقدمات والبحث والفطرة، ورأى أن الإذن لهؤلاء المتخلفين هو أمر يوافق مراد الحق سبحانه؛ لأنهم لو خرجوا مع جيش المسلمين ما زادوهم إلا خبالاً[2]، لعدم توافر النية الصادقة فى الجهاد؛ لذلك ثبطهم[3] الله، وأضعف عزيمتهم حتى لا يخرجوا. والعفو هنا جاء فى شكلية الموضوع، حيث كان يجب التبيُّن قبل الإذن، فيقول الحق سبحانه:

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٦٣) وأحمد فى مسنده (١/ ٣٠، ٣١) من حديث عمر بن الخطاب من حديث طويل أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر وعمر: «ما ترون فى هؤلاء الأسارى؟». فقال أبو بكر: يا نبى الله، هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟ فقال: .. أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم .. فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها» وقد أخذ رسول الله ﷺ برأى أبى بكر وأخذوا الفداء، ولكن نزل وحى الله ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ [الأنفال: ٦٧]

(٢) الخبال: الفساد والنميمة وإيقاع الاختلاف والأراجيف (الأكاذيب).

(٣) التثبيط: التخذيل وإضعاف العزيمة على الخروج.

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ أى : أن رسول الله ﷺ لو لم يأذن لهم لكانوا قد انكشفوا ، ولكن إذنه لهم أعطاهم ستاراً يسترون به نفاقهم ، فهم قد عقدوا النية على ألا يخرجوا ، ولو فعلوا ذلك لافتُضِحَ أمرهم للمسلمين جميعاً ، فشاء الرسول ﷺ أن يسترهم [١].

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾

ويلفتنا سبحانه : أن الذين طلبوا ذلك الإذن بالقعود فضحوا أنفسهم ، فقد استأذنوا بعد مجيء الأمر من الله ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ ، وكل مؤمن بالله واليوم الآخر - فى تلك الظروف - لا يمكن أن يتخلف عن الجهاد فى سبيل الله . والمؤمن الحق لن يقدم الأعذار ليتخلف ، حتى وإن كانت عنده أعذار حقيقية ، بل سيحاول إخفاءها عن رسول الله ﷺ ليخرج معه مجاهداً بل إنه يسرع إلى الجهاد ، حتى ولو كان الله قد أعطاه رخصة بعدم الجهاد .

وهذه الآية - إذن - تحمل التوبيخ للذين استأذنوا ، بل وتحمل أكثر من ذلك ، فالمؤمن إذا دُعِىَ للجهاد مع رسول الله ﷺ وبأمر من الله لا يكون

(١) قال قتادة وعمرو بن ميمون : ثنتان فعلهما النبى ﷺ لم يؤمر بهما : إذنه لطائفة من المنافقين فى التخلف عنه ، ولم يكن له أن يمضى شيئاً إلا بوحى ، وأخذه من الأسارى الفدية ، فعاتبه الله .

تفكيره كالشخص العادى ؛ لأن الإنسان فى الأمور العادية إذا طُلِبَ منه شيء أدار عقله وفكره ؛ هل يفعله أو لا يفعله ؟ ولكن المؤمن إذا دُعِى للجهاد فى سبيل الله ، ومع رسول الله ، وبأمر من الله ؛ لا يدور فى عقله الجواب ، ولا تأتى كلمة « لا » على خاطره أبداً ، بل ينطلق فى طريقه إلى الجهاد .

وكيف يكون الأمر بالخروج إلى القتال صادراً من الله ، ثم يتحجج هؤلاء بالاستئذان بعدم الخروج ؟

إذن : فمجرد الاستئذان دليل على اهتزاز الإيمان فى قلوبهم ؛ لأن الواحد منهم فى هذه الحالة قد أدار المسألة فى عقله ، يخرج للجهاد أو لا يخرج ، ثم اتخذ قراراً بالتخلف . والغريب أن هؤلاء استأذنوا رسول الله ﷺ فى عدم الخروج ، مع أن أمر الجهاد صادر من الله سبحانه وتعالى ، ولم تكن المسألة تحتاج إلى أن يأذن لهم الرسول بالتخلف . إلا أنهم كانوا يبحثون عن عذر يحتمون به .

والمثال من حياتنا اليومية أننا نجد أولاد البلد يسخرون من البخيل الذى لا يكرم ضيفه ويدَّعى أنه سيكرمه ، فتجده ينادى ابنه ويقول له أمام الضيف : انزل إلى السوق وابحث لنا عن خروف نذبحه للضيف ولا تتأخر فنحن منتظرون عودتك . . وما إن يقول الضيف أدباً منه : لا . تجد البخيل يصرف ابنه . ويتخذ من رفض الضيف حجة لعدم إكرامه ، وكأنه يريد ذلك ، ولكن الواقع يقول : إنه لا يريده من أول الأمر .

ونعلم جميعاً أن الإنسان لا يستأذن فى إكرام ضيوفه . والمثال : هو إبراهيم عليه السلام عندما جاءته الملائكة فى هيئة رجال ، وأراد أن يكرمهم فلم يستأذنهم فى أن يذبح لهم عجلاً ، بل جاء به إليهم مذبوحاً ومشوياً [1] ، هذا سلوك مَنْ أراد إكرام الضيف بذبيحة فعلاً ، أما مَنْ يريد أن يبحث عن العذر ، فهو يتخذ أساليب مختلفة يتظاهر فيها بالتنفيذ ، بينما هو فى حقيقته لا يريد أن يفعل ، مثلما يقالُ لضيف : أتشرب القهوة أم أنت لا تحبها ؟ أو يقال له : هل تريد تناول العشاء أم تحب أن تنام خفيفًا ؟ أو يقال : هل تحب أن تنام عندنا أم تنام فى الفندق ، وهو أكثر راحةً لك ؟

وما دام هناك من سأل الرسول : أأخرج معك للقتال أم أقعد ، فهذا السؤال يدل على التردد ، والإيمان يفترض يقيناً ثابتاً ؛ لأن التردد يعنى الشك ، وهو الذهاب والرجوع على التوالى ، وهو يعنى أن صاحب السؤال متردد ؛ لأن طرفى الحكم عنده سواء .

إذن : فالمؤمنون بالله لا يستأذنون رسول الله ﷺ إذا دُعوا إلى الجهاد ؛ لأن مجرد الاستئذان فى الخروج إلى الجهاد لا يليق بمؤمن .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ أى : أن الله يعلم ما فى صدورهم من تقوى ، فهم إنْ خدعوا الناس ، فلن يستطيعوا خداع الله ؛ لأنه مُطَّلع على ما تُخفى الصدور .

(١) وقد ورد هذا فى قوله تعالى ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود : ٦٩] وقال : ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ [الذاريات : ٢٦] . ما لبث : أى : ما أبطأ عن مجيئه بعجل مشوى بحرّ الحجارة من غير أن تمسه النار ، وهو معنى الحنيذ .

ثم يُنزِل الله حكمه فى هؤلاء فيقول:

﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

وهكذا أصدر الله حكمه فيمن أقدموا على الاستئذان ، فما دام الإنسان قد تردد بين أن يخرج للجهاد أو لا يخرج ، فهذا يكشف عن اهتزاز إيمانه، وهذا الاهتزاز يعنى وجود شك فى نفسه ، فيما أعد الله له فى الآخرة ؛ لأنه إن كان واثقاً فى داخله يقيناً أنه سيدخل الجنة بلا حساب إنْ استشهد ، ما تردد ثانية واحدة ، ولا أدار الأمر فى رأسه هل يذهب أو لا يذهب ؟ فما دامت الجنة هى الغاية ، فأىُّ طريق مُوصل إليها يكون هو الطريق الذى يتبعه مَنْ فى قلبه يقين الإيمان ، وكلما كان الطريق أقصر كان ذلك أدعى إلى فرح الإنسان المؤمن ؛ لأنه يريد أن ينتقل من شقاء الدنيا إلى نعيم الآخرة ، وحتى لو كان يحيا فى نعيم فى الدنيا ، فهو يعرف أنه نعيم زائل وهو لا يريد هذا النعيم الزائل، بل يريد النعيم الباقى الذى لا يزول .

والتردد والاستئذان هنا معناهما : أن الشك قد دخل فى قلب الإنسان، ومعنى الشك - كما نعلم - هو وجود أمرين متساويين فى نفسك لا يرجح أحدهما حتى تتبعه . والنسب الكلامية والقضايا العقلية تدور بين أشياء متعددة ، فأنت حين تجزم بحكم فلا بد أن يكون له واقع يؤيده ؛ لأنك إن جزمتَ بشىء لا واقع له فهذا جهل، والجهل - كما نعلم - أن تعتقد أن

شيئاً ما هو حقيقة ، وهو غير ذلك ولا واقع له . فإذا أنت على سبيل المثال قلت : إن الأرض مبسوطة ، ثم جاءوا لك بصورة الأرض كروية وأصررت على أنها مبسوطة ، فهذا جهل وإصرار عليه . وفرق بين الجاهل والأمى ، فالأمى الذى لم يكن يعرف أن الأرض كروية ، ثم علم حقيقة العلم وصدقها فهو متى عرف الواقع صدقه وآمن به . ولكن الجاهل يؤمن بما يخالف الواقع . فإن جئت له بالحقيقة أخذ يجادل فيها مُصراً على رأيه . ولذلك نجد مصيبة الدنيا كلها ليست من الأميين، ولكن من الجهلة لأن الأمى يحتاج إلى مجهود فكرى واحد ، أن تنقل له المعلومة فيصدقها ، أما الجاهل فإقناعه يقتضى مجهودين : الجهد الأول : أن تخرج ما فى عقله من معلومات خاطئة ، وأوهام ليست موجودة فى الواقع ، والجهد الثانى : أن تقنعه بالحقيقة .

وإذا كان هناك واقع فى الحياة تستطيع أن تدلل عليه فهذا هو العلم . فإن لم تستطع التدليل عليه فهذا هو التلقين ، والمثال : أننا حين نُلقن الطفل الصغير أن الله أحد ، وهو لم يبلغ السن التى تستطيع عقلياً أن تدلل له فيها على ذلك . ولكنك قلت له : إن الله أحد ، وجزم بها الطفل ، وهذه حقيقة واقعة ، ولكنه لا يستطيع أن يدلل عليها . وهو فى هذه الحالة يُقلد أباه أو أمه أو مَنْ لقنه هذا الكلام حتى ينضج عقله ويستطيع أن يدلل على ما اعتقده فى صغره بالتلقين .

إذن : فالعلم يقتضى أن تؤمن بقضية واقعة عليها دليل ، ولكن إن كنت لم تصل إلى مرحلة الجزم ؛ تكون فى ذهنك نسبتان ؛ وليست نسبة واحدة . فإن لم ترجح نسبة على الأخرى ، فهذا هو الشك . وإن ظننتَ أنت أن إحداهما راجحة فهذا هو الظن ، فإن أخذت بالنسبة غير الراجحة فهذا هو الوهم .

الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ ولو استقر فى قلوبهم الإيمان اليقينى بالله واليوم الآخر ، وأن مَردَّهم إلى الله سبحانه وتعالى ، وأنهم سوف يحاسبون على ما قدموا ، واعتبروا أن تضحيتهم بالمال والنفس عمل قليل بالنسبة للجزاء الكبير الذى ينتظرهم فى الآخرة ، لو كان الأمر كذلك لما استأذنوا ، ولكن ما دام الشك قد دخل قلوبهم فمعنى هذا أن هناك ريبة في أمر ملاقاة الله في اليوم الآخر . وهل هذا الأمر حقيقة يقينية ؟ ولأنهم يرتابون فى هذه المسألة فهل يضحون بأموالهم وأنفسهم من أجل لا شىء، ولذلك يقول عنهم الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ .

إذن: فالارتياب محله القلب ، والعلم أيضاً محله القلب ، ويمر كل من الارتياب والعلم على العقل ؛ لأن العقل هو الذى يُصفِّى مثل تلك المسائل بعد أن يستقبل المحسَّات ويناقش المقدمات والنتائج ، فإن صفَّى العقل هذه الأمور واستقر على الإيمان ، هنا يصبح الإيمان قضية يقينية ثابتة مستقرة فى القلب ، ولا تطفو مرة أخرى إلى العقل لتُناقَش من جديد ، ولذلك سمَّوْها عقيدة ، أى عقدت الشىء حتى يستقر فى مكانه ولا يتزحزح .

إن الطفل - مثلاً - إنْ قرَّب يده إلى شىء مشتعل فأحس بلسعة النار . هنا يعرف أن النار محرقة ولا يحاول تكرار نفس التجربة ، ولا يناقشها فى عقله ليقول : لن تلسعنى النار فى هذه المرة ، بل تستقر فى ذهنه المسألة ، وتنتقل من قضية حسية إلى قضية عقدية لا تخضع للتجربة من جديد ولايحتاج فيها إلى دليل .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ، وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [البقرة : ٧]

والقلب هو محل القضايا التى انتهت من مرحلة التفكير العقلى ، وصارت قضايا ثابتة لا يبحثها العقل من جديد .

وقوله هنا ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ معناه : أن الإيمان عندهم لم يصل إلى المرتبة التى لا يطفو فيها مرة أخرى للتفكير العقلى . . أيؤمن أو لا ؟ ، أى : لم يصل إلى مرتبة اليقين ، بل ما زال فى مرحلة الشك الذى يعيد القضايا من القلب إلى العقل لمناقشتها من جديد ، ولذلك يصفهم الحق سبحانه وصفاً دقيقاً فيقول : ﴿ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ أى : أن الإيمان عندهم يتردد بين العقل والقلب ، فينزل إلى القلب ثم يطفو إلى العقل ليُنَاقَشَ من جديد ، ثم ينزل إلى القلب مرة أخرى ، وهكذا يتردد الأمر بين العقل والقلب ، ولا يستقر فى مكان ، وهم بذلك على غير يقين من الآخرة ، وما أعدَّ الله لهم فيها من جزاء . ويشكُّون فى لقاء الله فى اليوم الآخر . ويدور كل ذلك فى نفوسهم ، ولكنه لا يصل إلى مرتبة اليقين .

ويريد الله سبحانه وتعالى أن يوضح لنا الصورة أكثر فيقول:

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

ففى ترددهم دلالة على أنهم لا يريدون الخروج للجهاد ؛ ولو كانوا عازمين بالفعل على ذلك لأعدوا ما يلزمهم للحرب من الزاد والراحلة والسلاح ، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً من هذا قط ؛ لأنهم افتقدوا النية الصادقة للجهاد فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم .

ولقائل أن يقول : ألم يكن من الجائز أن يعدوا كل شيء للقتال فى آخر لحظة ؟ نقول : لا ، فالذاهب إلى القتال لا يمكن أن يستعد فى آخر لحظة . بل لابد أن يشغل نفسه بمقدمات الحرب من سلاح وزاد وراحلة وغير ذلك ، ولو لم يشغل نفسه بهذه المسائل قبل الخروج بفترة وتأكد من صلاحية سلاحه للقتال ؛ ووجود الطعام الذى سيحمله معه ؛ وغير ذلك ، لما استطاع أن يخرج مقاتلاً . فليست المسألة بنت اللحظة ، بل كان عدم استعدادهم للقتال يُعَدُّ كشفاً للخميرة المبيَّتة فى أعماقهم بألا يخرجوا ، وسبحانه قد اطلع على نواياهم ، وما تُخْفى صدورهم ، وقد جازاهم بما أخفوا فى أنفسهم . لذلك يقول :

﴿ وَلَـٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ وسبحانه وتعالى لا يحتاج إلى أحد من خلقه ، بل الخلق هم الذين فى احتياج دائم إليه سبحانه ؛ لذلك ثبط هؤلاء عن الخروج ، وكره سبحانه خروجهم للقتال ، و « ثبطهم » أى جعلهم فى مكانهم ، ولم يقبل منهم أن يعدوا العدة للقتال كراهية منه سبحانه أن يخرجوا بنشاط إلى القتال . والكره : عملية وجدانية. والتثبيط : عملية نزوعية.

وأضرب هذا المثل دائماً - ولله المثل الأعلى - أنت ترى الوردة ، فتدرك بعينيك جمالها ، فإنْ مددتَ يدك إليها لتقطفها ، هنا يتدخل الشرع ليقول لك : لا ؛ لأن هذا نزوع إلى ما لا تملك . وإن أردت أن تحوز وردة مثلها ، فإما أن تشتريها وإما أن تزرع مثلها ، إذن : فالمشرع يتدخل - فقط - فى الأعمال النزوعية .

وكراهية الله لنزوعهم تجلَّتْ فى تثبيطهم وخذلهم وردِّهم عن الفعل ، وزيَّن لهم فى نفوسهم ألا يخرجوا للقتال مع رسول الله ﷺ ؛ وذلك

لحكمة أرادها الحق سبحانه ، فوافقت ما أذن فيه رسول الله فى التخلف ، وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ وإذا كان التثبيط من الله ، فكأنه أوضح لهم: اقعدوا بإذن من الإرادة الإلهية . أو أن رسول الله ﷺ أذن لهم بالقعود والتخلف لمّا استشفّ تراخيهم ، أو أن الشياطين أوحتْ لهم بالقعود ، فالحق هو القائل سبحانه:

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢]

وهكذا نجد أن كلمة : ﴿ قِيلَ ﴾ قد بُنيتْ لما لم يُسَمَّ فاعله لإمكان أن يتعدد القائلون ، فالله بتثبيطه لهم كأنه قال لهم : اقعدوا، والرسول ﷺ قال لهم : اقعدوا ، والشياطين حينما زينوا لهم القعود ؛ كأنهم قالوا لهم: اقعدوا . وقولهم بعضهم لبعض زيَّن لهم القعود ، وهكذا أعطتنا كلمة واحدة عطاءات متعددة .

وهل ينفى عطاءٌ عطاءً ؟ . لا ، بل كلها عطاءات تتناسب مع الموقف .

﴿ وَلَـٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ والمقصود بالقاعدين هنا : هم الذين لا يجب عليهم الجهاد من النساء والأطفال والعجائز . فكأنهم قد تخلوا بعدم خروجهم عن رجولتهم التى تفرض عليهم الجهاد . وهذه مسألة ما كان يصح أن يرتضوها لأنفسهم . وفى موقع آخر من نفس السورة قال الحق سبحانه :

﴿ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة: ٨٧]

وقد كانت الرجولة تفترض فيهم أن يهبوا للقتال ، لكنهم ارتضوا لأنفسهم ضعف النساء والأطفال .

ونجد الشاعر العربى عندما أراد أن يستنفر أفراد قبيلته الذين تكاسلوا عن القتال معه، فقال :

وَمَا أدْرِي ولسْتُ إخَالُ أدْرِي

أقوْمٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نِسَاءُ (١)

والقــوم تُطلَقُ على الرجـال دون النســاء (٢). ثم يبين لنا الحق حكمـة التثبيط ، فإن كان قعودهم من جانب الخير، فتثبيط الله لهم حكمة ، وإذن الرسول لهم بعدم الخروج حكمة. وإن كانت مسألة قعودهم من وسوسة الشياطين لهم أو وسوسة النفوس ، فقد خدمت وسوسة الشياطين ووسوسة النفوس قضية الإيمان ، وأعانوا على مراد الله ، وهذا هو الغباء الكفرى ، فزينت الوسوسة لهؤلاء المنافقين عدم الخروج للجهاد فى سبيل الله ؛ لأنهم لو خرجوا لحدث منهم ما قاله الحق سبحانه و تعالى فيهم :

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) ﴾

والخبـال مرض عقـلى ينشـأ معه اختـلال مـوازين الفكر ، فتقول: فلان مخبــول، أى: أنه يحـكم فى القضـايا بدون عقل ، إذن فقـوله تعـالى: ﴿ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ﴾ أى: أنهم لن يكونوا إلا مصـدراً لبلبلة الأفكار لو خرجوا معكم للقتال ، فلا تستطيعون اتخاذ القرار السليم . فكأنهم عين

(١) البيت من قول زهير بن أبى سلمى
(٢) ويُقــوِّى هـذا قــوله تعــالى : ﴿ لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ [الحجرات : ١١] فلو كانت النساء من القوم لم يقل: ﴿ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ ﴾.

عليكم ، وضدكم وليسوا معكم ، وقد يكونون من عوامل الهزيمة التى لم يُرِدْهَا الله لكم ، وليسوا من عوامل النصر ، فكأن عدم خروجهم هو دفع لشر ، كان سيقع لو أنهم خرجوا معكم . وشاء الحق عدم خروجهم حفاظاً على قوة المؤمنين وقدرتهم على الجهاد .

وقوله تعالى : ﴿ وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ ﴾ أى: أنهم كانوا سيُحْدِثون فُرْقة بين صفوف المؤمنين ويُفرِّقونهم ، وسيتغلغلون بينهم للإفساد ؛ لأن الخلال هو الفُرْجة بين الشيئين أو الشخصين، فيدخل واحد منهم بين فريق من المؤمنين فيفسد ، وآخر يفسد فريقاً آخر ، وهكذا يمشون خلال المؤمنين ليفرقوا بينهم .

ولكن التساؤل : هل كانوا سيخرجون معهم أو فيهم ؟ هم كانوا سيدخلون فى الفُرج بين المؤمنين ليبلبلوا أفكارهم . ونقول : إن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض ، وعندما تسمع كلمة "فيكُم" اعلم أنها تغلغل ظرف ومظروف ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى فى موضع آخر من القرآن ما يوضح لنا الظرف والمظروف، قال الحق:

﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ (٧١) ﴾ [طه]

هل كان فرعون سيصلب السحرة فى داخل الجذوع أم على الجذوع ؟ وإن كان أهل اللغة قد قالوا : إن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض . فإننا لا نرضى هذا الجواب ؛ لأننا إن رضيناه فى أساليب البشر ، لا يمكن أن نقبله فى أساليب كلام الله ؛ لأن هناك معنى «فى» الظرفية ؛ ومعنى آخر فى استخدام حرف "على" . ولو قال الحق سبحانه وتعالى: «لأصلبنكم على جذوع النخل» ، فإن لها معنى أن يكون الصَّلْب على الجذع ؛ أى: أنه صَلْبٌ عادى ، ولكن قوله تعالى: ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ معناه : أن

عملية الصَّلْب ستتم بقوة بحيث تدخل أجزاء من جسم المصلوب فى المصلوب فيه ، أى : أن جنود فرعون كانوا سَيَدقُّون على أجساد السحرة حتى تدخل فى جذوع النخل ، وتصبح هذه الأجساد وجذوع النخل وكأنها قطعة واحدة ، هذه صورة لقسوة الصلب وقوته .

لكن إذا قلنا : على جذوع النخل لكان المعنى أخفَّ ، ولكان الصَّلْب أقل قسوة ، فكأن القرآن الكريم قد استعمل ما يعطينا دقة المعنى . بحيث إذا تغيَّر حرف اختل المعنى . ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. (١٣٣) ﴾ [آل عمران]

أى : أن سرعتنا فى العمل الصالح تنتهى بنا إلى المغفرة ، إذن : فنحن قبل أن نسرع إلى الصالح من الأعمال لم نكن فى المغفرة ، وعندما نسارع نصل إليها .

ثم نجد قول الحق سبحانه وتعالى أيضاً :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. (٩٠) ﴾ [الأنبياء]

ولم يقل : يسارعون إلى الخيرات ؛ لأن عملهم الآن خير ، وهم سيسارعون فيه ؛ أى سيزيدونه ؛ إذن : إنْ سارعتَ إلى شىء كأنه لم يكن فى بالك ، ولكنك ستسرع إليه ، ولكن سارعتَ فى الخير ، فكأنك فى الخير أولاً ثم تزيد فى فعل الخير .

وإذا تدبرنا قول الحق سبحانه : ﴿ وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ ﴾ نجد أن «أوضع» تعنى : أسرع بدرجة بين الإبطاء والسرعة ، فيقال : "أوضعت الدابة" ؛ أى مشتْ بخُطىً غير بطيئة وغير سريعة فى نفس الوقت ، ولو نظرتَ إلى

حالة هؤلاء المنافقين لو خرجوا مع المؤمنين للقتال ، لرأيتهم وهم يزينون لهم الفساد ، ويعملون على أن تصاب عقول المقاتلين بالخبل ، ولوجدتَ أن هذا الأمر يتطلب آخر البطء وأول السرعة فى الحركة ، كانوا يحتاجون إلى البطء ؛ لأنهم كانوا سيهمسون فى آذان المؤمنين بتزيين الباطل وهذا يقتضى بُطْئاً ، ثم ينتقل الواحد منهم إلى مؤمن ثان ليقوم معه بنفس العملية ، ولابد أن يسرع إلى التواجد بجانب المؤمن الآخر . إذن : فالحركة هنا تحتاج إلى البطء فى الوسوسة ؛ وسرعة فى الانتقال من مؤمن لآخر . وهذا أدقُّ وصف ينطبق على ما كان سيحدث .

ولكن ما هدف هؤلاء المنافقين من أن يضعوا الخبل فى عقول المؤمنين ؟ ويُفرِّقوهم جماعات ؟ الهدف : أن ينالوا من وحدتهم وقوتهم ، ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ أى : يطلبون لكم الفتنة ؛ لأن الإنسان الشرير حين يرى خيراً يقوم به غيره ، يجد الملكات الإيمانية فى أعماقه تصيبه بنوع من احتقار النفس ، فيحاول التقليل من شأن فاعل الخير بأن يسخر مما يفعله أو أن يستهزىء به ، وهذا أوضح ما يكون فى مجالس الخمر ، حين يحس الجالسون فى هذه المجالس بالذنب الشديد ؛ إن وُجدَ بينهم إنسان لا يشرب الخمر ، فتجدهم يحاولون أن يُغْروه بكل طريقةَ ؛ لكى يرتكب نفس الإثم ، فإذا رفض أخذوا يُعيِّرونه ويستهزئون به ، ويسخرون منه، ويدَّعُون أنه لم يبلغ مبلغ الرجال ،وغير ذلك من أساليب السخرية . وأيضاً تجد الكذاب يحاول دفع الناس إلى الكذب ، والسارق يغرى الناس بالسرقة ، والمرتشى يحاول نشر الرشوة بين جميع زملائه ، فإذا وُجدَ إنسان نزيه وسط هؤلاء الذين يرتكبون هذه الألوان من السلوك السيئ ؛ فهم يضطهدونه ويسخرون منه .

والمثال: حين يقوم إنسان للصلاة بين عدد من تاركى الصلاة، تجدهم يحاولون السخرية منه ، فهذا يقول له : خذنى على جناحك ، وهذا يقول له مستهزئاً : يجعلنا الله من بركاتك. ويُبيِّن لنا القرآن الكريم هذه القضية ليعطينا المناعة الإيمانية فيقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

وهذه الآيات تعطينا صورة لما يحدث عندما يعمُّ الفساد فى الأرض ، فالذين سخروا من المؤمنين يضحكون ضحكات ستزول حَتْماً طال الوقت أو قَصُر يتبعها عذاب فى الآخرة ، أما أهل الإيمان فهم يخشون الله فى الدنيا؛ فيثيبهم الله فى الآخرة ، ويضحكون ضحكة خالدة مستمرة .

إذن: فقوله تعالى :﴿ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ أي: إنهم من فَرْط حقدهم عليكم وعلى إيمانكم، يحاولون أن يفتنوكم فى دينكم حتى تنزلوا إلى مستواهم ، تماماً كأنماط السلوك التى بيَّناها من قبل .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه وتعالى أن الصف الإيمانى لن يكون فى مَنَعة مما كان سيفعله هؤلاء المنافقون، فصحيح أنهم لم يخرجوا مع المؤمنين ،ولكن هناك بين المؤمنين من كان يستمع لهم ، ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ وسمعتُ لفلان، أي: سمعتْ أذنى ما

قاله، وسمعت من فلان، أى: لصالح شخص آخر ، أى :من يستمع منهم أو من يستمع أخباركم فهو ينقلها إليهم .

إذن : فاللام تأتى بالمعنيين ، فمن المؤمنين من كان سيسمع لهؤلاء المنافقين مما يُحدث بلبلة فى فكرهم ، ومن هؤلاء المبلبلين للأفكار جواسيس لهم ينقلون إليهم أخبار المؤمنين ويعملون لحسابهم ، وهناك من المؤمنين مَنْ سيسمع لهم أولاً ، فإذا أصيبوا بالخبل بدأوا فى نقل أخبار المؤمنين إليهم ، وهكذا جاءت "اللام" فاصلة بين "سمعت له" أو "سمعت من غيره لصالحه" ويزيد الله سبحانه هذا الأمر إيضاحاً فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) ﴾ [النساء]

فنجد السطحى التفكير يقول : إن هذا تحذير من مخاصمة الخائنين ؛ خوفاً من ألاَّ يقدر عليهم، أو أن يزدادوا فى إثمهم بسبب هذه الخصومة . ونقول : إنك لم تفهم المعنى ، فالمعنى الواضح هو : لا تكُنْ لصالح الخائنين خصيمًا ، أى: لا تترافع عن الخائنين أو تدافع عنهم.

وقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ لأن الذى كان سيسمع ، والذين سيسمع لصالحهم ؛ كلاهما ظالم والله عليم بهم .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) ﴾